محورية التربية الاجتماعية في فلسفة التغييرعند مالك بن نبي.

د/ العابد ميهوب، جامعة زيان عاشور الجلفة

ملخص: إن دراستنا للإنسان في فكر مالك بن نبي الذي يعتبره محور الأساسي في عملية التغيير الحضاري يعني تتبع مناحي الثنائية في كتاباته حول الإنسان والمتجسدة في الثنائية القائمة بين الذاتي والموضوع وتجاوزهما، والتي تكتسي مفهوم القوة والمعنى للإنسان داخل الحضارة الإنسانية، فالقوة التي يكتسبها في هذا الحقل المتطور والمتجدد يعني تحقيق الرغبة الذاتية في ناحية، وتحقيق الأهداف الموضوعية للجماعة والمجتمع من ناحية أخرى.

فلذا نجد رؤية مالك بن نبي السوسيولوجية تسير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في اتجاه دحض النظريات الماكرو-سوسيولوجية التي تجعل الفرد نتيجة للظواهر الاجتماعية، فهو يولي الأهمية القصوى للفرد (الإنسان) وكل ما يقوم به من سلوكات، ويرى أنها مؤثرة في الظواهر الاجتماعية، ومن ثمة في التغيير الاجتماعي، كون الفرد يتلقى تكوينا شخصيا وواقعا اجتماعيا.

كلمات مفتاحية: محورية التربية الاجتماعية، فلسفة التغيير ، مالك بن نبي

Résumé: Notre étude de l'être humain dans la pensée de Malik ben Nabi, qu'il considère comme l'axe principal dans le processus de changement de civilisation, signifie retracer les aspects du dualisme dans ses écrits sur l'homme et incarné dans le dualisme existant entre subjectivité et sujet et les transcender, qui acquiert le concept de pouvoir et de sens de l'homme dans la civilisation humaine, la force qu'il acquiert dans ce domaine en évolution. Et renouveler signifie atteindre le désir de soi d'une part, et atteindre les objectifs objectifs du groupe et de la société d'autre part.

Par conséquent, nous trouvons la vision sociologique de Malik ben Nabi allant directement ou indirectement dans le sens de réfuter les théories macrosociologiques qui font de l'individu le résultat de phénomènes sociaux, car il attache la plus haute importance à l'individu (humain) et à l'ensemble de son

comportement, et considère qu'il influence les phénomènes sociaux, et à partir de Dans le changement social, il y a le fait que l'individu reçoit une formation personnelle et une réalité sociale

تمهيد: إن التركيز على التربية الاجتماعية وتخصيصها جزء ليس باليسير في كتابه "ميلاد مجتمع"، تضمينا لها على أنها هي الروح الذي يدوم و يستمر به المجتمع، و هي باعتبارها سلوكات و تصرفات أي الجانب التطبيقي و العملي للقيم الروحية في المجتمع التاريخي، التي يضطلع بمهمة تشييد الإنسان من الداخل و ترميمه وإعادة تأثيثه من جديد. و التربية صلة قويمة المسار بين أفراد المجتمع، و تحويل لطاقاتهم إلى تأدية وظيفة اجتماعية، مؤسسة على قواعد خلقية سليمة، و غياب دور التربية و التنشئة الاجتماعية الصحيحة في تكوين الفرد يؤدي إلى تغيير في سلوكه و أفعاله، حيث أن هذين الأخيرين تتحدد من خلال تنشئة المجتمع الذي يعيش فيه، و أهم ما يربطه بالمجتمع تلك العلاقات الاجتماعية بينه و بين الجماعات و الأفراد في المجتمع المحلي و الكبير. و من ثم فإن مسؤولية ضبط المجتمع للفرد تقع على عاتق الأسرة حتى سن النضج تقريبا، فالأسرة هي المدرسة التي تولد فيها العواطف، لما لدور الأم في بناء شخصية الطفل. فإن التغيير بصفة عامة سنة من سنن الكون، و المتتبع لحركة المجتمعات يلم بما أصاب المجتمعات المتخلفة جراء هذا التغيير الذي شمل الحياة الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية، فقدتم زحزحة الفرد في العالم المعاصر إلى مستوى السطحية و العزلة عن طريق الصورة الآلية و الميكانيكية، بشكل لم يسبق له مثيل، و يحاول الفرد الذي يعيش في هذه الظروفو أن يعود مرة أخرى إلى جذوره في حضارته الخاصة.

و في على الأساس قدّم ابن نبي أغلب المجهود الفكري الذي أسماه " مشكلات الحضارة " في صيغة تربية اجتماعية تأخذ في مسارها كل السلوكات و المحامد إلى معاملات و تصرفات يومية، و تغير كل نشاط الحياة و تجعله متعلق بالهدف التاريخي، الذي خُلق من أجله الإنسان، فالعمل التغييري الذي تؤديه الجماعة في إطار عمل مشترك انطلاقامن الطاقة الحيوية هو الذي يصنع التربية الاجتماعية.

و سوف يحاول هذا الفصل أن يجيب على عدة أسئلة تتلعق بمبادئ التربية الاجتماعية،و شروطها و قواعدها، و كيف تجعل من كل عمل داخل المجتمع .عملي أو نظري .ضمن إطارها.

1.التربية الاجتماعية: التعريف و الموضوع.

1 .1: تعريف التربية الاجتماعية: إذا علمنا أن المجتمع لا يستطيع أن يغير ذاته إذا هو لم يبدأ أولاً بتغيير الإنسان من حيث سلوكه و أفكاره، فإن مالك بن نبي يدعو إلى التربية الاجتماعية لضمان بناء الإنسان بناء سليما و متكاملا من خلال تربية تأخذ من الفكرة الدينية الأساس و الموجه، و من التربية الاجتماعية ميدانا لتجسيد مبادئ و قيم الإنسان المتحضر.

و التربية الاجتماعية ليست عبارة عن أمور نظرية أو قواعد مجردة، و إنماهي في جوهرها قيم أخلاقية و ثقافية نابعة من أصالة المجتمع و تاريخه، و بقدر ما تستمد هذه التربية مفاهيمها من قيم المجتمع الثابتة، بقدر ما تكون قادرة على إحداث التغيير السليم في فكرة الفرد و نفسيته، بل تصنع من الفرد شخصا اجتماعيا يضيف جهده و عمله إلى مجموع الطاقات الفردية الأخرى التي تلتقي كلها في صورة نشاط مشترك يقوم به المجتمع ككل.1

إن موضوع التربية الاجتماعية هو الفرد، و أهم مضمون لها هو تغيير الفرد نفسه، لأن كل ما يغير الفرد يغير المجتمع، و كل ما يبني الفرد يبني المجتمع و كل عمل في الاتجاه المعاكس فهو هدم للبناء الاجتماعي ككل.و التربية كإعداد و تشكيل لقيم و مهارات و اتجاهات الأفراد بما ينسجم و حاجات البناء هي تربية للمجتمع تتأثر البناء القائم و تؤثر فيه في حالة إعادة بنائه. و هذا ما قصده ابن نبي حين طرح تصوره للتربية الاجتماعية باعتبارها تكييف الفرد ضمن سياقه البنائي بتغييره من" فرد" غرائزي إلى"شخص" مُكيَّف ضمن النشاط المشترك.إن إدماجه في شبكة العلاقات الاجتماعية عملية تنحية، و هو في نفس الوقت عملية انتقاء. و تتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم .بواسطة المدرسة .و هذا ما يسمى التربية.2

1 . 2: موضوع التربية الاجتماعية: تعني التربية الاجتماعية عند إبن نبي أكثر من مجرد عملية اجتماعية تهدف إلى تغيير المجتمع، بل هي منهج يسترشد به المجتمع أثناء سيره في الدروب الوعرة، و لا يمكن أن تأتي أُكلها إلاّ إذا كانت شبكة العلاقات تعمل في نشاط حثيث. و قد مثلها في المنحى البياني الذي يمثل المراحل الثلاث:

أولا:المرحلة الروحية: و هي مرحلة تتفق مع شبكة العلاقات الاجتماعية حين تكون في أكثف حالاتها، لا في أكثر امتدادها. هذا ما توحي به عبارة (البنيان المرصوص)في قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾3 هذا من الناحية الاجتماعية، أما من الناحية النفسية فإن هذه المرحلة تسير و الحالة التي تكون فيها حالة التوتر عالية، و يكون نظام الأفعال المنعكسة في أقصى حالات تنظيمها. و لا يمثل هذا الواقع ازدهار مجتمع و بلوغه أوج عطائه، بل لأنها يتمتع بميزتين **اثنتين:** فقواه جميعها في حركة،و هذه الحركة دائمة مستمرة و صاعدة.و كل خروج عن الحركة الصاعدة هي حركة معطلة تعدّل و النقد و التوجيه، و هذا ما أوحت به قصة سورة التوبة في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا يقول الله سبحانه و تعالى:﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾4

ثانيا: المرحلة العقلية: تكون في هذه المرحلة شبكة العلاقات الاجتماعية في أكثر حالاتها سعة و امتدادا، لكن تكون شوائب الموازنة العقلية بدأت تطفو على السطح، و يقدم لنا مالك بن نبي بعض الشواهد التاريخية من التاريخ الإسلامي في صورة حالة الدولة العباسية عندما ظهرت دولة الأغالبة في المغرب الأدنى، و ظهور النزعة الشعوبية في المشرق و بلاد فارس، و من

وجهة التحليل النفسي يكون نظام الأفعال المنعكسة في المجتمع الإسلامي قد تعرض لصدمة (صدمة صفين)، في هذه المرحلة يكون جزء من غرائزه لم يعد تحت رقابة نظام الأفعال المنعكسة، هذا يحدث جراء تبعثر الطاقة الحيوية أثناء مباشرة الوظيفة الاجتماعية.في هذه المرحلة يؤدي المجتمع وظيفته الطبيعية و هي التطور و الاستمرارية، لكن الحركة الصاعدة تتغير، إما إلى سكون(و هذا ما يعرف في التاريخ الإسلامي بحركة المرجئة)، و إما إلى الهاوية (و تمثله حركة القرامطة و حادثة سرقة الحجر الأسود)، أو بعبارة أخرى كما يقول مالك بن نبي: فمجموع الطاقات لم يعد يعمل، و مجموع آخر يعمل ضد الحركة الدائمة، و بعبارة أصح: ضد المثل الأعلى للمجتمع.5

ثالثا:المرحلة الغريزية: و هي المرحلة الأخيرة التي يصلها المجتمع، ففي هذه المرحلة تتفكك الغرائز، تصبح فردية غير منسجمة، و تتهاوي شبكة العلاقات الاجتماعية، فيخْتَلُّ نظام الطاقة الحيوية و يفقد قيمته الاجتماعية حين يهرب من مراقبة نظام الأفعال المنعكسة الناشئ عن عملية التكييف.و هذا ما يعرف بـ: (عصر الانحطاط)، و هي الحالة التي أوجدت ظروف الاستعمار و القابلية للاستعمار. لذلك نرى أن تاريخ مجتمع ما، هو تاريخ شبكة العلاقات الاجتماعية و نظام الأفعال المنعكسة لدى نموذجه، و هو الفرد المكيف.

2 : الشروط الأولية للتربية الاجتماعية :

1.2 : التغيير النفسي: يبدأ التغيير النفسي بظهور الفكرة الدينية في مجتمع ما، فالإنسان تدبّ فيه الحيوية، و يحقق عمله الاجتماعي، فالفكرة الدينية تخلق الشبكة الروحية و التي هي قضية إيمان بالله، و هو يخلق بعمله هذه شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لها المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، و أن يؤدي نشاطه المشترك. العمل التاريخي هو بالضرورة من صنع الأشخاص و الأفكار والأشياء جميعا، و معنى هذا أنه لا يمكن أن يتمّ عمل تاريخي إذا لم تتوافر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص و بين هذه العوالم، لتشكّل كيانها العام من أجل عمل مشترك.6 بينما كان أول شيء في هذه الطريق هو تكوين نظام الانعكاسات الذي يغير السلوك الإنساني، و هذا التغيير النفسي هو الذي يبدأ منه تغيير المجتمع، وكذلك يمثل الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي. و هذا ما جاء صريحا في الآيةالكريمة، و التي كانت اللبنة الأولى في منهج مالك بن نبي التغييري، في قوله تعالى:"﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.7

و كانت دائما الفكرة الدينية هي المبعث الأول في التغيير النفسي و بالتالي في تغيير المجتمع، فالفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى(عملية شرطية) تمثل ما يصطلح عليه علم النفس (الفرويدي) بـ(الكبت). و هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تلغ و لكنها انضبطت بقواعد نظام معين. و في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون

الطبيعة المفطور في جسده، و يخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.**8**

وكانت أول عملية يضطلع بها المجتمع الناشئ هي تغيير الصفات النوعية الخاصة بالفرد، إلى صفات اجتماعية تحدد معالم الشخص، و ذلك بتغيير الطاقة الحيوية المنطلقة من الغريزة إلى طاقة اجتماعية خاضعة لمراقبة نظام الانعكاسات المتكونة لدى الفرد المكيف الذي تم إخضاعه لعملية التربية، و يسمى إنسان في هذه الحالة بـ(الشخص) أو الفرد المكيف، و لا يمكن أن نلمح ذلك إلاّ من خلال تفعيل شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يؤدي إلى ظهور العمل المشترك.

2 . 2:النشاط المشترك: و هو صورة حضارية راقية تتولد عن المجتمع الجديد الذي تغير فيه الفرد إلى الشخص المكيف الذي خضع لعملية التكييف و الإشراط المؤهل للاندماج في المجتمع و استئناف وظيفته التاريخية .هذا المجتمع الذي يتأسس على فكرة (شبكة العلاقات الاجتماعية) التي توحد الطاقات المنطلقة بواسطة الغرائز و توحيدها في صورة نشاط مشترك يقوم به كافة أفراد المجتمع. فبقدر ما تكون هنالك فكرة واضحة تمام الوضوح عن دور هذا العنصر في ميلاد مجتمع معين، يمكن أن تكون هنالك فكرة دقيقة تمام الدقة عن دورها الذي يمكن أن تؤديه في (نهضة) هذا المجتمع. و هذا ما ندرك معناه في قوله صلى الله عليه و سلم : " إنّه لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أوّلها " بالمفهوم الاجتماعي الدقيق.**9** ذلك المثل الذي ساقه مالك بن نبي عن سلمان الفارسي و بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنهما، في ذلك النشاط المشترك الذي اضطلعت به أمة (الوسط) لتحقيق العلاقة الإنسانية المتحضرة. إن جميع المبادئ الأخلاقية دينية كانت أو دينية إنما تنتهي إلى هذا الأساس المقدس الذي يرتفع فوقه بناء الإنسانية الأخلاقي، كما أنه هو الذي يؤمن نشاطها المشترك.**10**

لكن كيف يتبلور هذا العمل المشترك في صورة تربية اجتماعية ؟ إن وحدة العمل التاريخي ضرورة، فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها و هي التي تتجسم في صورة (حضارة) يعد ضرورة أيضا، هذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود(عالم) رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما نطلق عليه (شبكة العلاقات الاجتماعية) فعمل المجتمع ليس مجرد اتفاق (عضوي) بين الأشخاص و الأفكار و الأشياء، بل هو تركيب هذه العوالم الثلاثة، بحيث يحقق ناتج هذا التركيب في اتجاهه، و في مداه (تغيير) وجوه الحياة،أو بمعنى أصح : تطور هذا المجتمع.

فعلى سبيل المثال إن الشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكوّن النوع، و إنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة، و هذا الكائن في ذاته نتاج حضارة، إذ يدين لها بكل ما يملك من أفكار و أشياء، و بعبارة أخرى:كل من العوالم الاجتماعية الثلاثة يتفق مع الصيغة التحليلية الآتية: ناتج حضارة = (إنسان + تراب + وقت)، و هذه المعادلة العضوية التاريخية تتجلى في كل عنصر من عناصر المجتمع الثلاثة لتؤكد وحدة تأثيره منفردا، كما يتجلى في علاقاته بالعنصرين الآخرين، لتؤكد وحدة

تأثيرها مجتمعة، و هي تتجلى بصفة خاصة في الإطار الشخصي للفرد حين تقدم له بصورة ما جوهر نظام علاقاته الاجتماعية، و خلاصة القول أن أصل شبكة العلاقات الاجتماعية، الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك، إنما يَكْمُنُ في تخلُّق تركيبه العضوي التاريخي، و على هذا فإن تاريخ هذا التركيب هو الذي يفسر أصله، كما يحدد في الوقت نفسه طبيعة العلاقات الاجتماعية لحظة نشوئها.**11**

و يؤكد على أن فعالية العمل الجماعي تتحدد من خلال إيجابية العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، و لا يتم ذلك بمعزل عن التركيب الحضاري لتاريخ هذه المجتمع، و لا يمكننا فهم حركة الحضارة في غياب تركيبها الذي هو في الوقت نفسه يحلل و يفسر طبيعة العلاقات داخل الكيان الحضاري.

3.قواعد التربية الاجتماعية:

3 . 1: القاعدة التاريخية: تتحدد التربية الاجتماعية في المجتمع من خلال استقراء تاريخه و صيرورته التي شكّلت بنائه الاجتماعي، و قامت بتشكيل التنظيم الاجتماعي من خلال "الفكرة " الجديدة التي بثّت الروح في أوصاله و أحيته من جديد، إذا كانت الطبيعة توجد النوع، فإن التاريخ يصنع المجتمع. و هدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، و هو ما نطلق عليه الحضارة. **12** و هذا التاريخ الذي يشكل جزءًا هاما من الحضارة و يسهم في بنائها فهو صورة واقعية و مرآة عاكسة لجملة السلوكات و التصرفات الاجتماعية و تعبير واقعي عن الانعكاسات و التفاعلات داخل المجتمع، يضيف إن التاريخ، في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه، إنما يمثّل النشاط المشترك للأشياء و الأشخاص و الأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات أي في نفس الأوان الذي يواكب عملية إنجازه.**13**

فإذا كانت عوالم الأفكار و الأشياء و الأشخاص لا تؤدي دورها دون فكرة دينية تعطيه الدافع القوي لخلق سلوكات اجتماعية حميدة و تجاوز سلوكات أخرى سارعت بتهديم البناء القديم، فالدين كما يقول "سيشرون" **Sicheron** في كتابه عن (عن القانون) هو " الرباط الذي يصل الإنسان بالله " فحتما فهو رابطة أخلاقية و تربية يغرسها الله في عباده عن طريق الأنبياء. فأي تربية تغييرية بنائية لا تتحرك ضمن الإدراك التاريخي لدورة مجتمع تفقد التشخيص السليم .فالموجهات الروحية والأخلاقية للإسلام و هي تكوّن نظام الانعكاسات المغيّر للسلوك قد تركت وثائق في التغيير النفسي و الاجتماعي" يمكن أن تكون تأكيدا لما سبق إيراده من اعتبارات نظرية، بحيث تخوّل هذه الاعتبارات قيمة تربوية قابلة للتطبيق لدى نهضة المجتمع الإسلامي و إعادة بنائه. فبقدر ما تكون هناك فكرة واضحة تمام الوضوح عن دور هذا العنصر في "ميلاد مجتمع" معين، يمكن أن تكون هناك فكرة دقيقة تمام الدقة عن دورها، و الذي يمكن أن تؤديه في "نهضة " هذا المجتمع.**14**

3 . 2: القاعدة الاجتماعية: تشكل الحياة الاجتماعية القاعدة الصلبة التي تجري عليها التربية الاجتماعية، لأنها تهدف بالأساس إلى بناء و تنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية، لكي يمكن للمجتمع أن يسجل حضوره في التاريخ، و تأخذ طابع الثقافة من خلال تجسيد بعض المبادئ كسلوكات اجتماعية، لذلك نجده قد أكّد أن الثقافة هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة. و قد أكّد في كثير من مقارباته على ضرورة بناء العالم السلوكي الحياتي اليومي للإنسان الحضارة و ذلك من خلال المنطق العملي،و الذي يقصد به استخدام أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة مهما كانت بساطتها و قلتها، لأن التاريخ .في نظره . يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعتقد عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، و شعارات كاذبة، يعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبيرة.**15** و حدد إبن نبي جملة من السلوكات تقوم بتوجيه العمل صوب سلوكات اجتماعية تبرر الحياة الاجتماعية و تقوم بتربية اجتماعية من خلال الأعمال اليومية لكل حسب موقعه،من أجل بناء اجتماعي سليم، حتى تلك السلوكية التي تبدو هينة. إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل و الراعي و صاحب الحرفة و التاجر و الطالب و العالم و المرأة و المثقف و الفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء. فإعطاء ثلاثة حروف من الأبجدية عمل، تقبل هذه الحروف عمل، و إزالة أذى عن طريق العمل، و إسداء نصح عن النظافة أو الجمال .دون أن يغضب حين لا يصغى لنصحه . و عمل و غرس شجرة هنا عمل، و استغلال أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل، و هكذا. فنحن نعمل مادمنا نعطي أو نأخذ بصورة تؤثر في التاريخ.**16**

و لكي نخلع على التربية الصفة الاجتماعية يجب في البداية أن يقوم المجتمع ببناء و تنظيم و استمرار تلك الصفات الشخصية الذاتية لكي تضمن للفرد شخصيته و دوره في التاريخ". و هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن، و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، و توجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به، فتكوّن هذه الشبكة، و لو في مرحلة ابتدائية هو الذي يعبّر عن حدث(ميلاد مجتمع) في التاريخ.**17**

3 . 3:القاعدة الشخصية:إن التربية الأصلية الفعالة، هي باستمرار تلك التربية التي تنجح في بناء وعي تكاملي متوازن لدى الفرد و المجتمع، و لا تبتسر هذا الوعي بحصره في جوانب أو أجزاء من منظومات الوعي الخلقي أو التسخيري أو الاستخلافي، بل تتجاوز ذلك إلى استيعاب شمولي تكاملي لكل المنظومات. لأن ذلك لا يتأتي إلاّ من خلال طاقة حيوية تقوم بعملية التجديد داخل الإنسان المحفّز الذي يرمي إلى بناء حضارة، فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده و بين مثله الأعلى و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلا و شاهدا. و ينتهي التاريخ

بالإنسان المتحلّل؛ بالجزيء المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل، و لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو أساسا ماديا.**18**

و لننظر إلى الفكرة الدينية في دفع الطاقة الحيوية نحو شبكة العلاقات الاجتماعية، لكن هذه المرة في صورة ميكروسكوبية تجزئ الطاقة الحيوية إلى طاقات ثلاثة حدّدها: طاقة القلب و طاقة اليد و طاقة العقل، حيث بيّن أن الإسلام حينما جاء استطاع خلق حضارة خلال نصف قرن لأنه أتى بالمبررات الدافعة لهذه الطاقات الثلاث لتحقيق متساندة حضارة ذات إشعاع عالمي، الشيء الذي لم يتحقق للمجتمع العربي طوال أربعة آلاف سنة (منذ عهد إسماعيل . عليه السلام . إلى البعثة المحمدية)، فحالة المرأة التي جاءت تطالب النبي . ص . أن يقيم عليها حد الزنا . رغم سرية الذنب . تعبر عن حالة توتر اجتماعي في طاقة القلب و التي عبّر عنها النبي . ص :" لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لَوَسِعَتهُم".**19**

و يحصل التوتر الاجتماعي بدافع الفكرة الدينية من الفرد بموقعه السياسي لما طالب الحاكم و الخليفة عمر ابن الخطاب رعيته بأن يقوّموا اعوجاجه و انحرافه، و قوبل ذلك بتوتر اجتماعي أكبر منه من الرعية حين عقّب عليه الأعرابي:"لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا " فالبنية الاجتماعية لا تبلغ كمالها الخلقي و الحضاري إلاّ بهذه العلاقات التبادلية بين طاقة حيوية مندفعة من الفرد و ضمانات اجتماعية يكفلها المجتمع لأبنائه.**20** إن تنظيم الطاقة الحيوية للفرد و تكييفها ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية و الأنشطة المنبثقة عنها يقودنا إلى القول بأن كل فكرة عن التربية الاجتماعية يجب أن في ضوء تكوين الفرد و علاقاته الاجتماعية. إنه لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، و في سلوك نموذجه الذي يتكوّن منه، و بعبارة أخرى: لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة، عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد، و في مستوى المجتمع.**21**

4 . مبادئ التربية الاجتماعية:

4 . 1: الفعالية التغييرية: وتمكن هذه الخاصية في تغيير الإنسان المتخلف . إنسان ما بعد الموحدين . فقبل بدء دورة من الدورات الحضارية أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة، فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا، و سلبت منه الحضارة تماما، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة.**22** فدور التربية الاجتماعية هنا هو أن للإنسان فعاليته و طاقته الروحية التي فقدها و بناء عالم أفكاره، فأول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة علاقاته الاجتماعية. و على هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. و من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين، و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي . ص . و

لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقات اجتماعية حتّى قبل أن تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاثة: عالم الأفكار و الأشخاص و الأشياء.23

إن مفهوم التربية الاجتماعية إذن أساسي إذا ما أردنا أن نشكّل حضارة جديدة، و نبني ثقافة متحضرة تطول كل شرائح المجتمع و تتعداه بالتوجيه و التفعيل، ذلك لأنها لا تهدف فقط إلى تعليم الناس بعض المسائل السطحية التي تخص سلوكهم و تعاملاتهم، و لكنها تهدف إلى التغيير الجذري للشخصية، و لعالم العلاقات الاجتماعية بالصورة التي تجسّد حركة الجماعة الإنسانية في أعمق معانيها، و أتقن صور تحضرها و فاعليتها التاريخية أي تجعلها جماعة متحضرة بأتم معنى الكلمة24 " إذا ليس الهدف منها .التربية الاجتماعية .أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة و لكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه، أعني أن نُعَلِّمُه كيف يتحضر. فإذا ما تصورنا التربية الاجتماعية في نطاق هذه المصطلحات أمكننا أن نلخصها في كلمة واحدة هي: الثقافة. فهذه إذن الثقافة في عمقها الحضاري، و في حيويتها الاجتماعية، فهي تربية اجتماعية ذاتها، هي منهج تغيير المجتمع و تحضيره. و هنا تأخذ فكرة التربية الاجتماعية أهميتها عندما تصبح مصدرا حيويا لتغيير الفرد، و تفعيل المجتمع، و توجيه خطاه باتجاه صناعة التاريخ، فهي في حقيقتها" وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، و كيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، و كيف يكوّن معهم شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه في التاريخ".25

4 . 2: بناء شبكة العلاقات الاجتماعية: بالإضافة إلى الفعالية التغييرية، نجد شبكة العلاقات الاجتماعية واحدة من المبادئ التي تتأسس عليها التربية الاجتماعية، فيقوم المجتمع الجديد بتأدية وظيفته التاريخية حين تكْتَمل شبكة العلاقات الاجتماعية و يؤدي عمله المشترك في التاريخ، فالمجتمع يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن له استمراره و تحفظ شخصيته و دوره في التاريخ.و هذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن، و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، وتوجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به.26

و في تعريفه لشبكة العلاقات الاجتماعية، و صلتها بالفعل التاريخي أو بناء الحضارة نجده يرجع إلى المكونات الأساسية للمجتمع، و يحدد لنا موقع الشبكة في هذه المكونات، كما يحدد لنا دور و وظيفة هذه الشبكة في الفعل التاريخي. ففي تصوره: " أن التاريخ على أية حال ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له (الذات) والمجال الذي يحوطه على السواء. أي أنه على ما ذهب إليه علم الاجتماع: النشاط المشترك، المستمر الذي تقوم به الكائنات و الأفكار و الأشياء مطبوعا على صفحة الزمان. و إذا أردنا تعبيرا أدق فإننا نقول:أن صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير عوالمه ثلاثة: عالم الأشخاص، عالم الأفكار، عالم

الأشياء، لكن هذه العوالم لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من(عالم الأفكار) يتم تنفيذها بوسائل من (عالم الأشياء) من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص). فالعمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص و الأفكار و الأشياء جميعا. و معنى هذا أنه لا يمكن أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص و بين هذه العوالم، لتشكل كيانها العام من أجل عمل مشترك، و كما أن وحدة العمل التاريخي ضرورة، فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية . و هي تجسيم في صورة (حضارة) . يعد أيضا، و هذه الشروط يستلزم كنتيجة منطقية وجود (عالم رابع)، و هو شبكة العلاقات الاجتماعية.27

و في هذه الفترة تخضع كل الجوارح للطاقة الحيوية، واندفع المسلم بكل طاقاته وإمكاناته في إطار الفكرة الدينية نحو تأسيس مجتمع جديد متكافل متضامن، وكانت شبكة العلاقات الاجتماعية على أقوى ما يتصوره إنسان، وبلغة علم النفس، فإن الفرد يكون في أحسن ظروفه ويعيش التوازن الدقيق بين: الروح و العقل، أو بين: الروح و المادة. فالتربية الاجتماعية تقوم على هكذا أسس متينة، و لحمة تربط أجراء المجتمع ببعضها البعض، ففاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص و الأفكار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. و كلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أوثق كان العمل فعالا مؤثرا.28 وتضعف قليلاً شبكة العلاقات الاجتماعية ولكن المجتمع يستمر قوياً بالاندفاع الأول؛ حتى يصل لمرحلة تنتهي فيها قوة الاندفاع كمحرك استنفذ آخر قطرة من وقوده، وتنتهي هذه الفترة بانتهاء عصر دولة الموحدين في المغرب." لقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة العلاقات الاجتماعية مريضة، و يتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد. و أكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب(الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد عندما يسترد (الفرد) استقلاله و سلطته في داخل الجسد الاجتماعي".29

5 . أسس التربية الاجتماعية:

1 . 5: الإطار الاجتماعي: تختلف مشكلات الإنسان عن المشكلات الطبيعية المادية، التي تستثمر التجارب الخارجية و تستقي خبراتها في تطوير الواقع المشابه لها، لكن الاستعاضة بتجارب الغرب في العلوم الاجتماعية و الإنسانية يعد ضرب من المجازفة و المخاطرة التي لا تحمد عواقبها، فالحلول المستوردة تفقد فاعليتها حين انفصالها عن إطارها الاجتماعي، فالصيغ و المعادلات الرياضية الحسابية في العلوم الفيزيقية لها وجهتها أثناء تطبيقها في المجتمعات الأخرى، لكن مجال الميكانيكا ليس كالمجتمعات، فهو يرفض كل حل مستعار لا يراعي الثقافة المجتمعية. فالرؤية تتحدد تجاه الغرب والحضارة الغربية تعكس ملامح بارزة في مكونات المنظومة الفكرية التي عبرّت عنها هذه الرؤية، و تكشف عن نظامها في التفكير و منهجيتها الذاتية.

ذلك لأن الغرب كان أعظم مؤثر على العالم الإسلامي منذ العصر الحديث، و مازال إلى اليوم يعتبر أكبر مؤثر على العالم بصورة عامة.30

لكن هذا التأثير يعمل على تفكيك المجتمع إذا لم يأخذ بحسبانه قيمه و معتقداته،و ثقافته فلم يكن العلم الذي اقتبسته من جامعات الغرب وسيلة (إسعاد) بل كان طريقا (للمظهرية)؛لم يكن ذلك العلم (استبطانا) لحاجة مجتمع يرد معرفة نفسه ليحدث تغييرها،بل لم يكن (استظهارا) لبيئة نبحث عنها لنغيّرها، فهو قانع منطوي على ذاته، حبيس في صوره و أشكاله المألوفة، و أقرب دليل على انعدام فاعلية هذا العلم، هو أننا لن نر فيه حتى الآن وجها من تلك الوجوه الخالدة، يبرز في التاريخ المعرفة الإنسانية في القرن الحالي.31

فغياب الروح عن الحلول المستوردة أو اختلافها مع روح المجتمع تعيق فتلك الصيغ الاجتماعية التي في العادة نقوم بجلبها لتنظيم المجتمعات المتخلفة لا تصدق عليها الصيغ الكيمائية(هيدروجين2 + أوكسجين1 = ماء) هي صحيحة، لكن في البناء الاجتماعي و تنظيمه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تطبق دون أن تؤثر في بنية المجتمع، فكل مشكلة اجتماعية هي وليدة إطار اجتماعي معين نفخ فيها من روحه.و حتى داخل المنظومة الإسلامية فبعض الأنظمة (كالزكاة) مثلا، التي كانت إلى وقت قريب الدعامة التي قام عليها الحضارة الإسلامية دينيا و عسكريا و ثقافيا و اجتماعيا. لكنها فقدت فاعليتها الاجتماعية، كما هو الإسلام نفسه الذي فقد في نفسية الإنسان المسلم و ضميره صداه ودويه و قوة توجيهه لشلوك الفرد و أعماله ومشاعره و أفكاره. فلم يعد للإسلام داخل الدفع القوي و العامل الضابط لسلوك إلاّ داخل المسجد، الشيء الذي أحدث فتورا في العلاقة بين العنصر الروحي و العنصر الاجتماعي، و ما يطلق عليه في أدبيات علم الاجتماع بـ (الاغتراب النفسي) فشطر ينظم سلوكه في المسجد، و شطر ينظمه في الشارع. فيجد المسلم نفسه في محيط المسجد، لأن المسجد هو الذي ينشئ بالنسبة لضميره الوسط الأولي الذي تكوّن فيه، فهو يجد شخصه، لكنه على عتبة المسجد يفقد صلته بهذا الوسط الأولي، و يجد نفسه في نطاق الظروف الاجتماعية التي تمحو شخصه و تبعث فيه الفرد الخام.32

2.5 :الطاقة الحيوية: يعتبر مالك مفهوم الطاقة الحيوية أو التوتر كواحد من المفاهيم الأكثر محورية في صياغة الإنسان المنوط بالحضارة و عملية التربية، فهي مكوّن أساسي من مكونات الشخصية المسلمة، و هو حالة نفسية ناتجة عن التفاعل مع الفكرة الدافعة،و يفضي هذا التوتر إلى تحرر الطاقات الكامنة في الأنفس نحو الفاعلية و النشاط" ينطلق الفرد الذي يشعر فجأة بانفجار ذاتي في نفسه، انفجار يطلق طاقاته المكبلة، فتغير وجه التاريخ".33و مصدر هذا التوتر هو الفكرة الدينية التي تحدث تغييرا في سمت الفرد و مظاهره، حين تغير في نفسه، و بذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد، أي إن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة كأنها تتمثل في وجه جديد.34

لذا يضطر الإنسان لأن يستعير من الطبيعة طاقته الحيوية اللازمة لأداء نشاطه المشترك في التاريخ. لكن الطاقة الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها، أعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا، تعيد تنظيم هذه الطاقة، و تعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة في المقام الأول. بحيث تشتر في حفظ النوع. إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان، حين يسهم في النشاط المشترك للمجتمع.35

و قد أكّدت الفكرة الدينية صلاحيتها في بناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه المشترك، و أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق فجعلت منه إنسانا متحضرا و محضرا، و أظهرت فاعليتها الكاملة في إعادة تنظيم و توجيه الطاقة الحيوية، التي جعلت من المسلم الحديث الديانة يؤثر على نفسه، لتتحول إلى طاقة محكومة فعالة منظمة موجهة نحو المهام الاجتماعية على شاكلة خطة نهضة. و قد كانت الشواهد من التراث الإسلامي كثيرة و ناصعة منها قصة بلال بن رباح (رضي) الذي سيطرت عليه العقيدة نهائيا، و قصة الزانية التي أقبلت على الرسول لتطلب إقامة الحد عليها." في الوقت نفسه يواصل المجتمع ربيب الفكرة الدينية، طريق تطوره، و تكتمل شبكة العلاقات الداخلية، بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة في العالم، فتنشأ المشكلات المادية لهذا المجتمع الوليد، نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله.

6. أبعاد تشكيل التربية الاجتماعية:

1.6: الأبعاد الشخصية: تتأسس التربية الاجتماعية كسلوك اجتماعي على مجموعة من التصرفات والسلوك التي تتم من خلالها عملية التغيير النفسي و الاجتماعي و الثقافي داخل المجتمع، و هي العملية التي يحافظ بها المجتمع على بقائه و استمراره. و حتى يستمر المجتمع ينبغي أن يعمل على نقل معتقداته و معاييره و مهاراته. و من المعروف أنها تهتم بالتعليم أفراد المجتمع الطريقة متوقعة للسلوك الجديد، و هذا يعني أنها تتناول السلوك الإنساني و تغييره نحو الأحسن، لكي يمكن له أن يدخل في حلقة تاريخية جديدة، غاية البعيدة الحضارة ومنطلقها الأول هو الإنسان.

1.1.6: الأخلاق: قد صنّف العلماء تصورات الإنسان و معتقداته و تصرفاته و سلوكه إلى فئتين اثنتين:

الفئة الأولى: مقبولة من عامة الناس، و تسمى الفضائل و مكارم الأخلاق، وأصبحت كلمة أخلاق علما عليها دون إضافتها إلى غيرها.

الفئة الثانية: مرفوضة من عموم الناس، بالمعايير ذاتها و تسمى رذائل أو مساوئ الأخلاق.

و تشكل الأخلاق منظومة القيم التي تدخل في إعداد و تربية و تهذيب الإنسان، و هي قوام سلوكات تهدف إلى بناء شخصية الفرد، و تحقيق استقامته، جاءت لتضبط علاقته من نفسه، و علاقته مع الآخرين، و كل هذا يرتبط ببناء

الحضارة الإنسانية. فمنطلق بناءها الأساسي هو الإنسان، الذي يعتبر أحد أهم عناصر الحضارة، هذا الإنسان المتكامل الذي ينظر إليه بأنه يجتهد في التوفيق بين قيمه و مبادئه و أخلاقه، و بين حاجاته و مطامحه، و من أمثال هذه الشخصية تحصل صناعة التاريخ و يقول:" فالتاريخ يبدأ بالإنسان الذي يطابق دائما بين جهده، و بين مثله الأعلى، و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا و شاهدا، و ينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل، بالجزيء المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو أساسا ماديا، فليس أمامه حينئذ إلاّ أن يفر إلى صوامع المرابطين أو إلى أي مستقر آخر، و هذا الفرار صورة فردية للتمزق الاجتماعي".**36**

1 . 6 . 2:الفعالية: الفعالية هي النتيجة الطبيعية للمفهومية الصحيحة، فإن المرء إذا فهم مشكلاته ورتّبها ترتيبا منطقيا أصبح الأمر عنده كالآتي "مشكلة تَهُمني كمواطن عربى ومشكلات تواجهنى كإنسان يعيش في مجتمع إنساني، وبعد ذلك يأتي دور اتخاذ الموقف فى سبيل حل تلك المشكلات: "إن القضية.. تتصل بموقفنا نحن كأفراد تتصل بموقفي كمواطن أمام المشكلات فإننى عاجز عن صياغتها فكريا، إذا صيغت فكريا بصورة ما فإنني عاجز عن التصرف في الإمكانيات لحلها، فعجزي إذن مزدوج وليس عجزا بسيطا".**37** هذا العجز هو الوجه الآخر للفعالية، هو عدم الفعالية، فإذا تحرك الإنسان كان تحركه هو الفاعلية المنشودة في الحضارات، يقول: "علينا أن ندرس أولا الجهاز الاجتماعي الأول و هو الإنسان.. فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن المجتمع والتاريخ". **38**هذا التحرك هو فعالية الإنسان في التاريخ تحتاج تلك الفعالية إلى شروط لتحققها، أهمها: عدم الاستسلام لكل ما يحدث له من خلال وضعه تحت إطار القضاء والقدر، ولن يتحقق ذلك- أيضا - إلا بتحديد مسئولية المرء تجاه تلك الأحداث أو بقدر ما نكشف من أسرارها نسيطر عليها بدلا من أن تسيطر علينا فنوجهها نحن ولا توجهنا هي". **39**ويستدل ابن نبي بالآية الكريمة ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِوَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾. **40**فهذه الآية خير ما يمثل فعالية المسلم، ويكشف عن وظيفته الاجتماعية.

1 . 6 . 3: التكيف:هو مصطلح نفسي يعني به:" عملية إدماج الفرد في شبكة اجتماعية، عملية تنحية، و هو في الوقت ذاته عملية انتفاء، و تتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم بواسطة المدرسة و ذلك ما يسمى بالتربية. أما إذا كان المجتمع في طريق التكوين، فإن العملية تبدأ تلقائيا في الظروف النفسية الزمنية التي تتفق مع(الظرف الاستثنائي) الذي يوافي مع ظهور المجتمع".**41** و يبدأ في تفسير معنى التكيف انطلاقا من مشابهته بين الحياة الاجتماعية و الميكانيكا و خضوعهما لقانون (رد الفعل)، و بما أن الاستعمار في نوعه (فعل) المدنية الحاضرة، التي تسلّطت على الشعوب المستعمَرة، فالغرابة أن يكون لذلك (الفعل) في تلك الشعوب (رد فعل). هذا (الرد)الذي أصطلح على تعريفه في علم الاجتماع و علم البيولوجيا بأنه اتجاه الفرد و نزوعه إلى التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه. هذا (عدم التكيف) الذي أخذ في بعده النفسي مدلول (الاغتراب) الذي بدأ ظاهرا في المجتمع الجزائري من خلال سلوكات التي لا تتماشى مع عادات و تقاليد المجتمع، الذي فقد توازنه القديم من جراء ظهور ألوان جديدة تدلفي مجملها على نزعات متباينة، و

استعدادات فردية متنافرة، جعلت منه مضطربا و غير مستقر في نفسه و في تصوراته للأشياء و من جملها التي تبدت في سلوكه:

- ✓ الشباب الذي ينتمي بفكره و روحه لعصر النهضة في أوروبا، ذلك الشاب الذي تشرّب ثقافة أوروبا .رغم ضيقها .و رأى أن السعادة بدأت بانتشار الأفكار التحررية.
- ✓ شاب يرى أن المدنية معركة اقتصادية، و أن الحل يكمن في حيلة اقتصادية يحتالها المحتكرون، أو بكارثة مالية في السوق السوداء.
- ✓ من ينظر إلى المدنية تتمثل في الأعراس الانتخابية والمظاهرات العمومية، و هو يظن أن خطبة يهتف لها تقلب النظام العالمي. و هي نظرة مملوءة بالحقد المطلي بالرياء.
- ✓ و هي نظرة الشباب السلفيين الذين يشدهم الحنين إلى الماضي، و الذي يختزل تغيير نظام المجتمع في تطهير اللغة من رطانة العلج، و تطبيق قواعد النحو و الصرف.
- ✓ و هي نظرة مرتادي الحانوت، و الذين يرون في المثل الأعلى للمدنية معاقرة كؤوس الخمر و الترامي على أعتاب أبواب الحانات.
- ✓ وهو شباب سحقته المدنية سحقا، و جعلته ينبهر بها و تبدّت له المدنية ممثلة في تحرير المرأة، و الأكثر من ذلك الزواج بامرأة أوروبية عصرية لكي يكتمل المشهد.
- ✓ و هو شاب لم يتفاعل من حركية المجتمع و لم يندمج فيها، هو شاب مقتنع بحاله لا يرى و لا يحاول أن يفهم، قانع بدفع الضريبة غير مبالٍ باتجاهها الاجتماعي.

إن اختلاف وجهات النظر و تباعدها و تعددها في الكثير من الأحايين دليل واضح على تعدد درجات التكيف مع مجرى الحضارة. فإذا كانت الحياة .في فهم إبن نبي .تدعونا دائما نحو السير إلى الأمام فمن الواجب ألاّ توقفنا أخطاؤنا عن السير حثيثا نحو الحضارة الأصيلة و لكن يجب أن يتخذ في ذلك منهجا علميا عقليا لا فوضى عارمة يضير فيه الطريق و تكثر من حوله السبل، إن انزلاقنا في المتناقضات بسبب تفكيرنا الذي يأخذ بالذرية كمنهج لتحليل الأشياء، و عقائدنا السياسية التي تدين بالقيم الفاسدة للحضارة المتمثلة في أسطورة (الشيء الوحيد) و (الرجل الوحيد). إن الحضارة ليست أشياء متناثرة مبعثرة،و لا مظاهر جمالية تغطي على لب الشيء الفاسد، إنما هي جوهر ينتظم جميع أشيائها و أفكارها، و قطب يتجه نحوه تاريخ البشرية.

إن البحث عن المتناقضات من أجل معالجتها داخل البناء الاجتماعي لا يمكن أن يكتب له النجاح إلاّ إذا أخذ مفهوم الثقافة كمشروع تربوي يقوم بتخطيط شامل يحملها كل أفراد المجتمع، لكي تستقر الأنفس و تنسجم مع مجتمعها، لكي يكتب لهذا الأخير توازن اجتماعي جديد.42

6 . 1 . 4 :التوازن:الحضارة تتركب من تلك النظرة المتوازنة للروح والجسد والكم والكيف والغاية والوسيلة، فإذا اختل التوازن في جانب واحد اختلت الحضارة. "والحضارة الإسلامية قد فقدت تعادلها يوم فاتها أن ترعى سلامة هذه العلاقة بين العلم والضمير، بين العناصر المادية والوجود الروحي، فغرقت في هاوية الصوفية الخالصة، في فوضى المرابطين التي سببت سقوطها".**43**ولا يستثنى ابن نبي الحضارة الغربية من ذلك السقوط، ويرى أنها حين فقدت معنى الروح فهي "تجد نفسها بدورها على حافة الهاوية".**44** والإسلام هو الدين الأوحد الذييعد التوازن الدقيق والشامل من أهم خصائصه قال تعالى:﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ** ﴾. **45**ويقول الرسول صل الله عليه وسلام (الدُنْيَا مَطِيَّةُ الآخِرَة) وما عبرت عنه هذه النصوص بالنسبة للفرد المسلم- كما يقول ابن نبي- فهو ينطبق على الحياة الاجتماعية كلها.

6 . 1 . 5:الحرية: يولد الإنسان حرا في أصله، و لا يجوز تقييد حريته من طرف إنسان آخر، و هذه الحرية من مقومات التكريم التي حباه الله بها و تفضيله على مما خلق تفضيلا، و هي العامل الأساسي في الارتقاء بإنسانية الإنسان و إطلاق قدراته الفكرية المبدعة،و طاقاته الإنتاجية المبتكرة، و استنهاض همته و حماسته، و استنفار مواهبه و ملكاته.

فمفهوم الحرية في الثقافة الغربية هي حرية الذات في سلوكه المطلق، أما الحرية في المفهوم الإسلامي فهي حرية الإنسان من الاستعباد في ضل عبودية الله وحده. إنها حرية الفرد في إطار مجتمع مبني على معادلة أساسية: مسؤولية الفرد عن المجتمع و الإطار حوله، و مسؤولية المجتمع عن الفرد. فكما أن الإنسان حر، فالكل لهم ميزة الجزء، أي أن المجتمع حر كذلك في ممارسة حياته التي يرضاها في حدود ما شرع له الله، و هو المعني بمناقشة و نقد أوضاعه السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ليضبط حركتها في مسارها السليم الذي يوصل إلى مثله الأعلى. فالحرية في الإسلام تبني ثقافة من داخل الذات في حرية مجالها النفسي في نطاق المجتمع بكامل أبعاده، و هي في النهاية حرية بناء اتصال بالنظام الكوني و الإبداع الإلهي، لذا فالحركة حركة أداء و واجب في التراث الإسلامي، فهي طاقة في مداها الاجتماعي. و يقرر مالك بن نبي أن أول تحرر للإنسان يتمثل في التحرر الجزئي من قانون الطبيعة المفطور في ذاته و يخضع وجوده كله للمقتضيات الروحية التي أوجدتها الفكرة الدينية في نفسه، إيجادا يمارس معه حياته في هذه الحالة الجديدة طبقا لقانون الروح.**46**

ثم يأتي بعد ذلك التحرر من الشيطان و هو المعنى الذي أسبغه على الاستعمار الذي جثم على صدر الأمة، من خلال الفكرة الدينية التي تمثل المنعطف الأول الذي يحرّر الإنسان من ترسبات الثقافة الماضية التي خلقت إنسانا يعيش في الأفكار الخاطئة و المغلوطة، أسيرا لغرائزه بعيدا عن عوالم الروح، إن الفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى (عملية شرطية) تمثل ما يصطلح عليه علم النفس الفرويدي بـ(الكبت). هذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية: فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تلغ و لكنها انضبطت بقواعد نظام معين. و في هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في

جسده. و يخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، حيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.**47**

6.1.6 :النزاهة و الكفاءة و الملائمة: لا يمكن لأي إنسان أو ثقافة أو مجتمع أن يتطلع إلى اكتمال حضوره التاريخي إلاّ حين ينتقل من مجموعة بشرية يحيط بها عالم الأشياء و عالم الأشخاص إلى بنية أساسية هي عالم الأفكار.و هنا يبدأ مفهوم الثقافة في مسيرة التاريخ الذي أخذ تفسيرا آخر غير الذي اعتمد في القواميس و المناجد، فالثقافة في صورتها الحية، هي وحدة ذات أجزاء متماسكة و مترابطة فيما بينها بروابط داخلية، تحدّدها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه و أذواقه و تاريخه.**48**

إن السلوك الاجتماعي أكبر معبر عن ثقافة المجتمع و محركا لها، فقد استمد الإسلام حركتيه و نشاطه خارج دياره من خلال السلوك الاجتماعي لدى حاملي الدين الجديد إلى أدغال أسيا، من خلال نزاهة التجار، ضف إلى ذلك الكفاءة التي تمتع بها رجال استمدوا الاستماتة من صلابة نقطة الانطلاق و نبالة الهدف المنشود، و لم يكن فيهم من ارتقى بالمسؤولية من خلال تملق الحكام أو مداهنة الأمراء، بل كان الرجل المناسب في المكان المناسب من خلال الملائمة، ولم يقرن قيام القيامة في الإسلام بالكفر و الفسق و الكبائر و الذنوب و غيرها من الموبقات، بل رُبط بإسناد الأمر لأهله و إرجاعه لأصحابه.

إن النزاهة و الكفاءة صفتان مطلوبتان في رجل السلطة .كما يقول .مهما كانت مرتبته، إنما فوق هذه المرتبة لا بد من شيء من الملائمة في نظر عمر، فأبو عبيدة بن الجراح كان يملك تلك الملائمة الخاصة بتولي أمر الأمة، و المدينة المسلمة تأسست على هذه المجموعة من الفضائل في رجل السلطة و في المحكومين.و لأجل العمل على حفظ هذه الوسائل، أنشأ الفقه الإسلامي نظام (الحسبة) هذا النظام الذي يشبه من بعيد ما يسمى اليوم بـ (النقد الذاتي). فالسياسة يجب أن تكون: أخلاقية، جمالية، علمية، لكي يكون لها معنى في التاريخ.**49**

7.1.6: النقد الذاتي كواجب وموقف فكري: يندرج النقد من الناحية المعيارية بصفته ممارسة أخلاقية رفيعة، لذا نجد مالك بن نبي يحدثنا عن النقد الذاتي و الذي يطلق عليه مصطلح (التطهير النفساني) كقيمة تربوية يتميز بها إنسان الحضارة الإنسان المتكامل، الذي يرى فيه آلية يتشوَّف من خلاله المرء نفسه لإعادة التصحيح أو التعديل أو التغيير بالكامل، و يقتل من خلالها (تضخم الأنا)، و يهدف إلى تحريرنا من جميع ضروب العطالة التي توقف الجهد و من سائر أعذار العطالة التي تبرر كسلنا، كما يرمي إلى تحقيق الوحدة الأخلاقية و الإرادة الجماعية داخل البلاد بتصفية العقد المخجلة التي لا يقبل المواطنون الإقرار بها. و الموروثة عن العقود البائدة.و لقد مارس المجتمع الإسلامي الحديث النشأة،و لغايات تطهيرية في تلك الضروب الذائعة الصيت من (الإقرار الذنب) أو الإعلان عن الخطيئة من مثل يوم اعتقد فيه (عمر

بن الخطاب) أنه قد أثملته نشوة السلطة، فما كان منه إلاّ أن استدعى (الصحابة) رضي الله عنهم و جمعهم حذو المنبر ليعلن أمامهما مؤداه: أنه لم يكن شيئا مذكورا، بل هو أقل من اللاشيء، وأنه لا يعدو كونه مجرد راعي ماشية جعل منه الإسلام خليفة، و هكذا فتح عمر طريق النقد الذاتي للبشرية و في أسلوب التعامل مع الرعية من موقعه كخليفة للمسلمين،(إن رأيتم فيا اعوجاجا فقوموني بحد سيوفكم) إضافة إلى اعترافه بالخطأ في قوله: " أصابت امرأة وأخطأ عمر". هذا النقد الذاتي وذلك الإحساس المرهف بالخطأ فُقّدَ في العالم الإسلامي منذ عهد بعيد "ولم نعد نرى زعيما يعترف بأخطائه، وهكذا غرق المثل الأعلى الإسلامي، المثل الأعلى للحياة والحركة،في فيضان من التعالي والغرور، بل في ذلك القنوع الذي يتصف به رجل الدين، حين يعتقد أنه بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال دون أن يحاول تعديل سلوكه و إصلاح نفسه.. وبذلك تختل حركة التقدم للنفس فى الفرد والمجتمع".**50**

و إذا تخلى النقد البناء عن حقه لمصلحة التقليد و الرضا بالواقع فإن القضية تنتهي عند التسوية من أسفل في الحياة الأخلاقية و الفكرية، فتجمد الأفكار و الطاقات الاجتماعية، و ينتهي التقدم في الوطن، و يضيف مالك بن نبي . في معرض تدليله على قيمة النقد أن الدولة التي تمارس السياسة و ليس البولتيك، و التي لها باع كبير في إرساء قواعد الديمقراطية . كإنجلترا مثلا . التي أدرك حكامها هذا الخطر الداهم الذي يهدم كيان المملكة برمته، فقد قامت بتكوين أحزاب معارضة إلى جانب الحزب الحاكم، لتقوم في النطاق السياسي (بواجب) النقد، و ليس هذا (الواجب) بالشيء البسيط، فهو يتضمن معنيين، أحدهما يتصل بالجانب الأخلاقي عندما يؤدي النقد وظيفة (الشهادة) للحكم القائم بأنه أصاب، و يتصل الثاني بالجانب الفني في صورة (حكم) على أعمال الذين بيدهم مقاليد السياسة.

و ترتبط فعالية النقد بشرطين: **الإخلاص** للشهادة، و **الكفاءة** للحكم، ولا يغني شرط منهما عن الآخر، إذ لو توفرت الكفاءة اللازمة للجانب الفني، وحدها، فربما تكون المهارة في السياسة مجرد شعوذة و دجل، كما لو توفرت الشرط الأخلاقي، والإخلاص دون شرط الفني، فمن الممكن أن تكون السياسة في أيدي صبيان مخلصين في منتهى البساطة و في كلتا الحالتين، فإن (النقد) لا يقوم بدوره فهو لن يقوّم اعوجاجا، و لن يصلح فسادا، لأنه أعرج لا يمشي على رجلين، فلا يأتي بما يقوّم الأشياء، و لا بما يكمل و يوسع معانيها، و لا بما يهدي الأعمال إلى طريق الرشاد. و يبقى أن النقد يجب أن لا يكون موقف عداء يتبادل فيه الخصمان الشتم و الضرب..بالأقلام و الجمل... بل موقفا فكريا يتبادل فيه الاثنان آراءهما.**51**

6 . 1 . 8: المعاملة: إذا كانت الثقافة عند إبن نبي هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة، فقد أولى كثير العناية بالجانب السلوك و المعاملة اليومية للأفراد داخل المجتمع، فالدين معاملة، و يختبر جميع هذه السلوكات في التاريخ الإسلامي الذي يعج بمثل هكذا صور رائعة قدّمها الأوائل من الصحابة و التابعين، فيقول:" فالحاكم ليس فقط رجلا عفيفا و نزيها كما كان شأن جميع الصحابة، بل يقتضي أيضا منصبه حسن المعاملة". 52و يستدل بقصة عمر بن الخطاب(

رضي)، و ذلك الأعرابي الذي رفض السمع و الطاعة له، فما عنفه عمر و ما نغص عليه حياته لكن قدّم له بكل بساطة و تواضع التبرير الوافي و الكافي عن قطعة القماش التي أعطاها له ابنه عبد الله ليكمل بها جلبابه نظرا لطول قامته. فأمير المؤمنين عامل هذا الأعرابي معاملة تنمي عن روح الإسلام، و أرسى من خلالها قيمة تربوية أخلاقية تؤسس لميلاد المجتمع على المعاملة الحسنة.

6 .1 .9:الطاعة: تناول مالك مفهوم الطاعة .كمحدد للتربية الاجتماعية .في إطار العلاقة بين الحاكم و المحكوم، و كسلوك يحافظ من خلالها التنظيم الاجتماعي على الحركة و الاستمرارية، و تعتبر الطاعة من وجهة نظر علم الاجتماع واحدة من جملة القيمو المعاير و القواعد الاجتماعية المنبثقة من تجارب و ثقافة المجتمع، و تعمل على تماثل الأفراد و ربطهم بالبناء الاجتماعي، وتعمل التنشئة الأسرية .كآلية من آليات النظام الضبطية . على غرس قيمة الطاعة من أجل تنظيم أفراد المجتمع من خلال تنسيق سلوكهم حسب مقتضيات مصلحة المجتمع الذي يعيش فيه، و هي أولى الآليات الضبطية في الأسرة، إذ يقوم الآباء و الأقارب بتنفيذ تعاليمها على الوليد الجديد، التي تنطوي على تأنيسه و تطبيعه و تجبيله على ما هو متفق عليه اجتماعيا من مسموحات و ممنوعات عن طريق الترغيب و الترهيب و العقوبة و المكافئة من أجل جعله إنسانا يعيش وسط أسرته و مجتمعه.

و قد انطلق تشخيص هذه الميزة من خلال طاعة المحكومين لحاكم في حديثهعن الديمقراطية في الإسلام، و ذلك من قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾.53

6 .1 .10: تجاوز الطبقية في المجتمع:و دائما في معرض حديثه عن الديمقراطية كسلوك اجتماعي يبرز في الأفق مصطلح يعبّر عن الطبقية داخل المجتمع الناشئ ممثلا في تحرير الرقيق، الذي أولاه عناية كبيرة في التربية الاجتماعية، فإذا كانت المنظومة الغربية التي تأسست ديمقراطية أثينا التي ركزت على قضية الرقيق من الوجهة البراغماتية و الانتفاع الاقتصادي. و العرب قبل الإسلام حين كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة، لكن التقاليد الإسلامية التي نشأت في زمن الرسول(ص)، و في عهد الخلفاء الراشدين، التي رسخت دعائم المجتمع الجديد القائم على تكريم الإنسان، فيقرر هذا المبدأ بكل وضوح فيشمل بذلك تقويمه الإنسان الذي وقع في قيد الرق، بمقدمات أو أصول فقهية نجدها في القرآن الكريم و في السنة النبوية، وتكون في الواقع تشريعا لعتق الرقيق بصورة تدريجية. فالطبقية داخل المجتمع على أسس لا أخلاقية مهما كانت طبيعتها، فهي انتقاص من قيمة الفرد، و امتهان لشخصه لا يقبلها المجتمع الجديد.

2.7 : الأبعاد المجتمعية:

1.2.7:الواجب فوق الحق: إن القيمة التربوية التي تحتويها فكرة الواجب و الحق تتمثل في الحركة التغييرية على مستوى النفس الإنسانية و دأبت عليه من خلال تفاعلها التاريخي مع مستلزمات الواقع الذي أنتج عبر قرون من الزمن منظومة قيمية لا يمكن تجاوزها إلاّ من خلال تصفية النفس و قبولها النقد و التوجيه و افتكاكها من تضخم الأنا الذي يفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، إن تحويل التركيز من (الحق) إلى (الواجب) ليس بالأمر الذي يأتي عفويا أو بالمصادفة، لأنه تحويل لعادات و طبائع منسجمة مع ما في الإنسان من ميل طبيعي إلى منطق السهولة مدعما من ديماغوجية القرن العشرين التي نصبت من (الأنا) وثنا جديدا يعبده الفرد في المجال السياسي باسم الحرية، و في المجال الاقتصادي باسم الحقوق. وفي المجال الرياضي يعبد باسم (الأنا) المجسم في ملاعب الرياضة. فتحويل التركيز الموروث ليس إذن بالأمر السهل بل لا يأتي إلاّ بصراع مع كل التيارات التي تنمي الأنانية بشكليها، الأنا و النحن.**54**

فإذا كان التاريخ ليس ما تصنعه الصدف و لا مكائد الاستعمار، و لكن ما تصنعه الشعوب ذاتها في أوطانها، فإن هذه الصناعة لا تبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة، الواجبات الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعقده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، و شعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة و المعجزات الكبيرة.**55** و يحيلنا على مسرح الواقع الذي يعج بالأمثلة التي تتحول فيها الشعارات على دروشة سياسية لا طائل من ورائها يرجى، فيعيدنا إلى الأفكار المضللة التي أفسدت العامة بدعوى الفن تارة و الأخلاق تارة أخرى ، ويضيف مع ما استجلبناه من مصر (الفاروقية) من الأسطوانات و الأشرطة السينمائية المجافية للفن و الأخلاق، فإننا قد استجلبنا منها أيضا لسياستنا تقوم على أفكار تضلل العقول البسيطة، كان لها أسوأ تأثير في حياتنا، حيث اتخذتها (الدروشة السياسية) شعارا لها و مبدأ، و كرّرتها على مسمع من الشعب، الذي رددّها معها سنين طويلة صباح كساء: " إن الحقوق تؤخذ و لا تعطى" لحاها الله كلمة تطرب و تغري، فالحق ليس هدية تُعطى، و لا غنيمة تغتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، و الشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلاّ إذا عدّل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي.**56**

فإذا كان حديث الرسول (ص) صريحا من حيث المسؤولية الاجتماعية فيما يتعلق أسبقية الواجب عن الحق، فقد أقر منذ قرون القيمة الأخلاقية والتربوية في حديثه الشريف:" كَيْفَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ " فالمطالبة بالحقوق يجب أن لا تنسينا القيام بالواجب غير منقوص، و التقصير في التربية كواجب، و الدخول في متاهة الحقوق أدخل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في متاهة سياسية طويلة الأمد و الدخول في الانتخابات و السفر في بعثات للخارج و التنافس على التمثيل في المجالس و غيرها، فبدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر و القيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت منذ

سنة 1936 سوقا للانتخابات. و صارت كل منضدة في المقاهي منبرا تُلقى الخطب الانتخابية. فلكم شربنا في تلك الأيام الشاي، و كم سمعنا الأسطوانات، و كم ردّدنا عبارة " إننا نطالب بحقوقنا " تلك الحقوق الخلابة المغرية التي يستسهلها الناس فلا يعمدون إلى الطريق الأصعب: طريق الواجبات. و هكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصفّقون لكل خطيب،أو قطيع انتخابي يُقاد إلى صناديق الاقتراع أو قافلة عمياء زاغت عن الطريق، فذهبت حيث قادتها الصدف في تيار المرشحين.57 إن عملية البناء تحتاج إلى الأسس التربوية المتمثلة في تقديم الواجب عن الحق، و الإنتاج عن الاستهلاك، إن مشكلة الواجب و الحق في نظره ذات أصل واحد و إن تعدّدت أشكالها:

- ✓ الواجب فوق الحق في المجال الأخلاقي و الاجتماعي .
- ✓ الإنتاج فوق الاستهلاك في المجال الاقتصادي.
- ✓ السياسة النظيفة في البولتيك في المجال السياسي .
- ✓ الخضوع للمثل العليا و الحوافز التحضيرية فوق صوت الغريزة في المجال الحضاري.
- ✓ الفعالية و البناء واقتحام العقبة و التضحية و الإبداع فوق فصل منطق الفكرة عن كمنطق العمل و التكديس و سلوك طريق السهولة و التواكل و الاستيراد في المجالين الفكري و العلمي.

و تقوم التربية الاجتماعية في هذا المجال بمجموعة من العمليات نذكر منها:

- ✓ تنمية الشعور بالواجب كقيمة أخلاقية على مختلف الأصعدة الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية، و بالعمل على محو العادات و الأفكار التي تتجه للمطالبة بالحق قبل الواجب، و بترسيخ أولوية تقديم الواجب على المطالبة بالحق.
- ✓ العمل على تثقيف طرائق التفكير و العمل و النشاط و محو كل الخرافات، و عوامل كف النشاط و الفعالية، و تحرير العقول من الانسياق وراء منطق السهولة، الذي يستسيغ نغمة الحقوق و ينسى الواجبات.
- ✓ التأكيد على أن أداء الواجب أعظم أثرا في نتائجه من تقديم المطالبة بالحق، و العمل على تكوين الوعي الشعبي و الإيمان القومي في هذا السبيل.58

لقد أصبحنا لا نتكلم إلاّ عن حقوقنا المهضومة و نسينا الواجبات؛ و نسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار؛ و في تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال و الأخلاق، و ما فيها أيضا من نقائص تعتري كل شعب نائم." إن العلاقة بين الحق و الواجب هي علاقة تكوينية تفسر لنا نشأة الحق ذاته، تلك التي لا يمكن أن نتصورها منفصلة عن الواجب، و هو يعد في الواقع (أول عمل قام به الإنسان في التاريخ). فالسياسة التي لا تُحدِّث الشعب عن واجباته، و تكتفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه، ليست سياسة و إنما هي خرافة، أوهي تلصص في الظلام، و ليس من مهمتنا أن نعلم الشعب كلمات و أشعار بل نعلمه مناهجا و فنونا".59

2.2.7 : مدرسة العمل المشترك:لا يمكن لأي مجتمع أن يجسد نمط من العلاقات و التفاعلات الجديدة التي ترسي قواعد البناء الجديد دون أن يتجسد ذلك في القيام بعمل مشترك يكرس على مستوى العمق البعد الإنساني لتفاعل شبكة العلاقات الاجتماعية، فالمجتمع التاريخي الذي يولد، فيكون ميلاده إجابة عن اختيار مفروض، تفرضه الظروف الطبيعية الخاصة بالوسط الذي يولد فيه، سواء تعرض هذا الوسط لتنوع مفاجئ، أو أن العناصر المكونة له قد واجهت فجأة ظروف وسط طبيعي جديد.**60**

و للإنجاز هذا العمل المشترك لا بد من منهج يتم في ضوئه إنجاز ذلك، إذ أن العمل من دون منهج يعني الاستحالة أو الخطر، و المنهج الأساس الذي يرتكز عليه المبرر،و ينطبع بروح ذلك الأساس .أي العقيدة .فإذا كان المنهج على خلاف مع ذلك الأساس فإنه يفقد فاعليته، بل يؤدي إلى تعطيل العمل المشترك، لأن الاختلاف بينهما يساوي الاختلاف بين المبررات نفسها.

و لكي يكتب النجاح لأي عمل نهضوي حضاري فيجب أن يتأسس على منهجا واضح يسير بالعملية إلى مبتغاها المنشود دون الولوج في فوضى، فيتم ذلك من خلال إدماج النشاط الفردي في النشاط الجماعي و إثارة فاعليته، و لتحقيق ذلك لا بد من أن يشتمل المنهج ثلاثة جوانب مهمة هي:

أولا: تحديد حرية الفرد بما يتفق مع مهمة إنجاز حضارة. و ضمان ذلك تربيته على أساس القيام بالواجبات.

ثانيا: تربية الفرد على إعطاء كل عمل التقدير الذي يستحقه، لإنجازه من دون إهمال العمل لسهولته، أو تركه من أجل صعوبته.

ثالثا: سلامة الضمير و تطهيره من الشعور بالذنب، لا يمكن أن يكون فعالا و مندمجا في النشاط الاجتماعي.

و تلك الجوانب الثلاثة قائمة على أساس التربية الأخلاقية، المستمدة من الدين و هذه هي مهمة الثقافة التي تعني بتوجيه طاقة الفرد، و في هذا ما يؤكد الارتباط الوثيق بين الإيديولوجيا و الثقافة و الدين.**61** و يولي لشبكة العلاقات الاجتماعية أهمية كبيرة في بلورة العمل المشترك على مستوى التاريخي في صورتها الروحية من خلال تكوين رابطة تستمد مشروعيتها من الفكرة الدينية، إن أصل شبكة العلاقات الاجتماعية .الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك .إنما يكمن في تخلّق تركيبه العضوي التاريخي.**62** و تمثّل شبكة العلاقات الاجتماعية ذلك البعد من خلال:

أولا: أن كل تغيير في الحياة الاجتماعية لا يمكن أن نرجعه إلى (المادة الاجتماعية) كالاقتصاد و العمل الحسي، و إنما تعزى إلى (العلاقات) التي تحول شروط الظاهرة الاقتصادية، حيث توحد العناصر في خلق حياة إنسانية منظمة، من أجل الاضطلاع ببعض الوظائف الاجتماعية، في نطاق(العمل المشترك) الذي يصنع التاريخ.**63**

ثانيا:أن بناء عالم الأفكار هو في حد ذاته نوع من العمل المشترك، و تجسّد ذلك تاريخيا من خلال ما يحدث للمجتمعات من كوارث بيئية و طبيعية فتمحى عوالم الأشخاص (كما حدث لروسيا و ألمانيا) لكي الرصيد المتبقي من عالم الأفكار أتاح لهما أن يعيدا البناء من جديد. هذا البناء ذاته نوع من العمل المشترك الذي يقوم به مجتمع معين، من خلال ما تنظمه شبكة العلاقات الاجتماعية و تجعله سبيلا إلى غاية معينة. ففاعلية (الأفكار) تخضع إذن لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص و الأفكار و الأشياء دون هذه العلاقات الضرورية.كلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالا مؤثرا.**64**

ثالثا: يقاوم العمل المشترك ظاهرة تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية و هي (تضخّم الأنا) و تقضي على الروابط الاجتماعية، إن العلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول لمشكلات بل للعثور على أدلة و براهين.**65**

رابعا: إن الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسد المجتمع تبدأ من تحلل شبكة العلاقات التي تفقد روحها الأولى التي أنتجتها، و قيم التجسيد على مسرح التاريخ، إن تفكك هذه العلاقات نهائيا، فذلك إيذان بهلاك المجتمع، و حينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ. فكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين، حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه.**66**

إن العمل الجماعي المشترك داخل المجتمع يتجسد من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية المتينة التي ترصُّ البنيان رصًا، و يعكس حالة المجتمع الإسلامي الأول المنسجم في طبقة واحدة من خلال وحدة المسار و المصيرو الهدف و هو المجتمع المثالي.

3.2.7: مبدأ المؤاخاة: إن المجتمع الذي يعنيه مالك بن نبيهو المجتمع الديناميكي المتغير نحو شيء من التقدم و التطور. و يرى أن أول عمل يؤديه المجتمع في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة علاقاته الاجتماعية. و على هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين. و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي (ص)، و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاثة: (عالم الأشخاص، عالم الأشياء، و عالم الأفكار).**67** لكن لماذا المؤاخاة تكون شرطا من شروط العمل الجماعي و اندماج فيما بينهم، و بالتالي تكون شرطا في استمرارية شبكة العلاقات الاجتماعية ؟

إذا كان مفهوم المجتمع هو الجماعة الإنسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن أن نطلق عليها مصطلح ميلاد.و لكن حين نتحدث عن ميلاد معين، فإننا نعرفه ضمنا بوصفه (حدثا) يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة. و يظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين جماعة معينة.**68** فهذه العلاقات الجديدة التي أرستها قواعد النظام الجديد بدأت بتكريس نمط جديد من التفاعلات و العلاقات تذيب كل الفوارق الطبقية و يجسد معنى الأخوة في أعلى الصور الإنسانية من خلال تجاوز منطق القبيلة و العشيرة إلى بناء مجتمع جديد، إن مجتمعا عندما يولد أو عندما ينهض لا يكون لديه (عالم الأشياء)، و من ثم لا يكون لديه سوى (عالم الأفكار) يلتمس فيه إخصاب الفكرة، و بواعث ثقافته؛ أعني: مبادئ التجديد و الخلق و الإبداع.**69**

7 . 2 . 4: مبدأ التبادل: لا يعني هنا التبادل بمعناه الاصطلاحي، إنما التبادل المقصود يتجاوز ذلك إلى فكرة التساند بين الفرد و المجتمع في إطار ثقافة لا تستورد النماذج و التجارب البشرية على صورة متراكمة و غير منظمة، بل تخلقها في مكانها و بيئتها و يبقى على الإنسان ترتيب العناصر و حشدها ضمن إطار موحّد في شكل أسلوب معيّن للحياة خاص بالمجتمع المتحضّر، و سلوك معين خاص بأفراده. و يمثل هذا تركيبا أوّليا للعناصر الثقافية كنشاط متبادل بين أسلوب الحياة و السلوك الإنساني، يوحي بوجود اتفاق مسبق بينهما يقضي بالتساند و الاحتفاظ بين كلتيهما. و يتم تعديل الإطار الثقافي عن طريق الضبط الاجتماعي أو من خلال عملية النقد، و ذلك أن المجتمع يتوقع سلوكا معين من الأفراد، و الإفراد يقومون برد الفعل في صورة أسلوب معين للحياة. فإذا كانت اللاثقافة .أو الفراغ الثقافي .تدافع عن المجتمع البدائي الثابت والمسكون بالخرافة و الدجل و الأساطير، و الأسير للعادات و التقاليد البالية، فأن المجتمع التاريخي يدافع عن بنائه الاجتماعي من خلال الدفاع عن علاقاته و تفاعلاته الاجتماعية و عن أسلوب حياته و فرض منطق الضبط الاجتماعي و النقد البناء و هما المظهران الأساسيان لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية لكي يحافظ المجتمع .من خلال هذه الوظيفة الثنائية . على نقاوة أسلوبه و على صفاته المميزة لفعاليته، و هنا تمكن وظيفة الثقافة التي تحدّد أصلها على قاعدة الضمانات المتبادلة بين الفرد والبناء الاجتماعي.

إن أسس النظام الاجتماعي التي وضعها الإسلام في صورة خرق السفينة في الحديث الشريف، أو خيرية هذه الأمة للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في الآية الكريمة، فهما يلخصان لنا مبدأ التبادل الذي يجب أن تدافع كل ثقافة عن تراثها بأن تضع بين البناء الاجتماعي، و الفرد ذلك التبادل الذي يقوم بعملية التقويم للأخطاء منهما كان مصدرها. إن هذه المبادلة لا يمكن أن تمارس إلاّ إذا تمّ ربط الفرد بالجسم الاجتماعي: بالصورة التي تلتحم بها مادة البناء بكامل البناية، و ذلك لكي نستعمل مرة أخرى صورة مقتبسة عن الرسول. و دور الثقافة إنمّا يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللّحمة الاجتماعية أولاً و بالذات.**70**

7 . 2 . 5: مبدأ التعاون: يرى ابن نبي أن التعاون خاصية لازمة للإفراد في المجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، و هي قوة في أساسها مرتبطة بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد، و التي تتيح له تكوين القبيلة و العشيرة و المدينة و الأمة، و روح التعاون هذه بين الفردو الجماعة، مهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم البعض، كما يشيرإلى ذلك القرآن الكريم.في قوله تعالى:﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾71و من العجب أن نجد اتفاقا له مغزاه و دلالته بين ما توحي به هذه الآية، و بين معنى كلمة دين **Religion** في أصلها اللاتيني فهي تعني هنالك" الربط و الجمع" و قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي، موجودة بكل وضوح في الإسلام، و لكن الإسلام المتحرك في عقولنا و سلوكنا و المنبعث في صورة إسلام اجتماعي، و قوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارة المنشودة، تجربة عمرها ألف سنة، و حضارة ولدت في أرض قاحلة وسط بدو رجال الفطرة و الصحراء.72

لذا كانت قيم التعاون التي أرساها المجتمع الجديد تمثل اللبنة الأولى في البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع الذي يعيد نشاطه من خلال تفعيل دورته التاريخية، إن المجتمع يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن له استمراره، و تحفظ شخصيته و دوره عبر التاريخ، و هذا المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي، إذ هو الذي يحدد عمر المجتمع، و استقراره عبر الزمن، و يتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا. و هو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، و توجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، و هي رسالة المجتمع الخاصة به. فتكوّن هذه الشبكة، و لو في مرحلة ابتدائية، هو الذي يعبر عن حدث (ميلاد مجتمع) في التاريخ.73 و بعيدا عن البعد السياسي الذي يقتضيه تكتل الأفروأسيوي، فمن الوجهة النظرية، كان يجب أن يهدف إلى إعادة تكوين الكتلة العربية الأسيوية و دفعها الجديد إلى أن تسير في اتجاه الحضارة.

7 . 2 . 11: تكوين الثقة بالنفس:من بين السلوكات النفس اجتماعية التي أولاها ابن نبي اهتماما خاصا في تحليله لفكرة التربية (مبدأ الثقة)، و هو مبدأ يجب أن يسود بين الحاكم و المحكوم كخاصية نفسية تهيئ للفرد الاستقرار و الأمن، و قد أخذ هذا المبدأ من فقيه الحضارة الصينية و حكيمها " **كونفيشيوس**" الذي سأله أحد تلاميذه عن أركان السلطة فأجابه: " يجب أن توفر السلطة ثلاثة أشياء هي : لقمة العيش، الكافية لكل فرد، والقدر الكافي من التجهيزات العسكرية، و القدر الكافي من الثقة في حكامهم، فأعاد سؤاله: و إذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد هذه الأشياء الثلاثة، فبأيهما تضحي؟ فرد الأستاذ: بالتجهيزات العسكرية، و يعود المرة ثانية لسؤاله: و إذا كان لا بد من أحد الشيئين الباقيين فبأيهما يضحي؟ فأجاب الأستاذ: في هذه الحالة نستغني عن القوت لأن الموت كان دائما مصير الإنسان و لكنهم إذا فقدوا الثقة لم يبق أي أساس للدولة.74

إن هناك داء واحد ينهش الشعوب العربية في كل مكان، في المغرب و المشرق، منذ قرون، ذلك الداء هو: فقدان الثقة بالنفس، و ما يطبع أخلاقنا من الوشاية، و التشهير،و عبادة التشريفات، و تملق الرؤساء، و في كلمة واحدة: هذا التردي المزمن الذي حمل الخلفاء و الأباطرة و الأمراء العرب على فرض نظام صارم على هذا الشعب، لا ينطوي على أدنى اهتمام بالتربية أو التقدم الاجتماعي، و كان هذا حتّى قبل أن يفكر الاستعمار في استغلال هذه النقائص كسلاح فتّاك في الشرق أو في الغرب".75

7 . 2 . 12: تصفية العادات و التقاليد:ربط مالك بن نبي النهضة و التقدم بتصفية العادات و التقاليد بتجلية ما فيها من إيجابيات و رفض ما فيها من سلبيات. متمثلة في تراكمات مجتمع ما بعد الموحدين الذي استكان إلى الذرية و التزمت و النزوع إلى المديح، و ما يوجد ارتبط فيها بالجانب الاجتماعي كالجدل و الحرفية و التشبث بأذيال الماضي و التحليق في الخيال . ويرى مالك بن نبي إننا حين نتكلم عن النهضة نتصورها في ناحيتين :

أولا: تلك التي تتصل بالماضي، أي خلاصة التدهور و تشعبها في الأنفس و في الأشياء.

ثانيا: تلك التي تتصل بخمائر المصير و جذور المستقبل و يأتي في مقدمة واجباتنا تصفية عاداتنا و تقاليدنا و إطارنا الخلقي و الاجتماعي، مما فيه من عوامل قاتلة و رمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية، و تكون التصفية حتما بفكر جديد يحطم ذلك الموروث عن فترة تدهور المجتمع، و يبحث عن وضع جديد. و يخلص إلى ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين:

الطريقة الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي.

الطريقة الثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة.

و يقترح لاستخلاص العبر من تجارب العلماء و المصلحين و يكون ذلك من خلال انتهاج طرقتين للتخلص من أوزار العادات و التقاليد و أثقالها المتراكمة عبر القرون:

أولا: فكر ثوري : يركز هذا المنحى على ما قامت به حركات الإصلاح في الوطن العربي التي قامت بعملية " هدم من أجل البناء"، و تنقية الثقافة الإسلامية من المقدسات الوهمية التي تسمى" تقاليد"، و قد انبرى لهاته المهمة في العالم العربي الإسلامي علماء أجلاء كان لهم الصدى الأوفى في بعث حركة التجديد:

أ/ جمال الدين الأفغاني: و كان فكرة الإصلاح لديه تتمثل في تقويض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك كيما يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس" الأخوة الإسلامية " التي تمزقت في صفين وفقا لرأيه. و أن يكافح المذهب

الطبيعي أو المذهب المادي في "جامعة عليكرة "، و قد أدرك بنباهته و صدقه و أن يتلمس بنظرة الناقدو المتفحص العفونة و الفساد التي استشرت في جسد الأمة، فانصرف إلى دراسة العوامل الداخلية و القضاء على ما يحيط بها من نظم و قوانين. لكن الأفغاني لم يحسن تشخيص الثورة التي في الغالب تخلق قيما اجتماعية جديدة صالحة لتغيير الإنسان من منطلق "المؤاخاة " و ليس "الأخوة".

ب/ محمد عبده: ينظر محمد عبده إلى مشكلة الإصلاح كمشكلة اجتماعية، تبدأ من الفرد و قد استندفي ذلك إلى الآية الحادية عشر من سورة الرعد، بشأن عملية التغيير ما بالأنفس. و كانت فكرته الأساس التي قام عليها هي " إزالة الأنقاض قبل البدء في عملية البناء" بعد أن دار النقاش حول كتابه الموسوم : بـ " رسالة التوحيد " الذي يعتبر أول عمل فكري من عقل مسلم منذ عهد إبن خلدون، الذي بدأ فيه بتحطيم صنم الموروث الذي جثم على صدر الأمة قرونا تباعا لم يخضع فيها للنقد أو إعادة القراءة كفكرة الحركة و التقدم التي لم يكن الأزهر الشريف يؤمن بها.

ج / عبد الحميد بن باديس: و الذي كان منهجه تصفيه المجتمع من الخرافات و الدجل التي ورثها. و ما زالت . منذ عصر الموحدين و التي تجسدت في الطريقة "المرابطية".

ثانيا: فكر منهجي: يركز على عمليات التشذيب اللازمة لتحرير النظام القائم من أوزار التقاليد، على أساس منهج مرسوم، يقوم على إحصاء العمليات الضرورية ليستطيع التمييز بين خبيث التقاليد و طيبها. و ما علقت بأطراف الفكر آنذاك من مظاهر سلبية كالحرفيةو اللفظية و الجلية و التبرير، الرومانسية، الاضطراب السلوكي، الشيئية و التكديس، الذرية.بالإضافة إلى ذلك، يجب تصفية عالم الأفكار و ما يعلق به أفكار ميتة ما زالت تميز عصرنا الراهن و أهم ما يميز هذه الأفكار أنها أفكار موروثة من عصر ما بعد الموحدين، تعبر عن القابلية للاستعمار، خطرها أشد من الأفكار القاتلة، لا زالت تكوّن الجانب السلبي في نهضتنا.

إن تصفية العادات و التقاليد يجب أن تتم بشكل منهجي منظم يبدأ بنقده، و بث روح الفعالية، و إعادة للدين دوره الاجتماعي و الطاقة الحيوية، فكل محاولة لإعادة بناء حضارة إسلامية يجب أن تقوم أولا، وقبل كل شيء على أساس سيادة " الفقه الخالص" على " الواقع السائد " الذي نشأ عن صفين، و لا شك أن هذا يقضي وجوعا إلى الإسلام الخالص، أعني تنقية النصوص القرآنية من غواشيها الكلامية و الفقهية و الفلسفية. أما الحركة الحديثة، فإنها ترمي إلى قيادة العالم الإسلامي في طريق غاية في الاختلاف عن هذا الطريق،فقد حطمت التقاليد التي تخفي جهالة ما بعد الموحدين، و لكنها لجأت أحيانا إلى العنف، و هو ما حدث على يد الحركة الكمالية في تركيا.**76**

7 . 2 . 14: مشكلة اللباس و الزي: هو تعبير عن هوية، فهو يسهم في تمييز المجتمعات عن بعضها ويعطيها خصوصيتها المتفردة، ويجعل الفرد يشعر بانتمائه إلى ثقافته وحضارته الخاصة، ويعطيه الشعور بالتكاليف الاجتماعية التي يضعها عليه لباسه المميز. لذا كانت الأهداف التي ركزت الدعوات الأولى لتحرر المرأة هي الحجاب للمرأة المسلمة قبل أي جانب آخر، مما يدل على أن مسألة الزي أو اللباس ليست مسألة جانبية أو شكلية كما يريد الكثيرون تصويرها، بل مسألة لصيقة بالنموذج الحضاري والاختيار الثقافي للفرد والمجتمع.

و يرى أن الزي أحد عوامل التوازن الأخلاقي الرئيسة، بل أكثر من ذلك يعتبره ذا روح خاصة:" ليس اللباس من العوامل المادية التي تقر التوازن الأخلاقي في المجتمع فحسب، بل إن له روحه الخاصة به، وإذا كانوا يقولون: "القميص لا يصنع القسيس" فإني أرى العكس من ذلك، فإن القميص يسهم في تكوين القسيس إلى حد ما، لأن اللباس يضفي على صاحبه روحه".77 أما بالنسبة للمرأة فإن الزي يمثل حقيقة نساء المجتمعات الأخرى، ويضفي عليها معاني الحضارة التي تعيش في قوالبها وأشكالها وطقوسها، فلباس المرأة الأوربية مثلاً الذي كشفها وفضح جسدها يدل على تسخير المرأة لأغراض هي غير الأغراض الحقيقية المعلن عنها، أغراض التحرر والاختيار والحضور الفاعل في المجتمع، وهو يعبر عن طبيعة الحضارة الغربية المادية وثقافتها الساعية إلى تقديس مبدأ اللذة، يقول مالك بن نبي:"غير أنها أصبحت اليوم-أي المرأة الأوربية- تلبس اللباس الفتان المثير، الذي لا يكشف عن معنى الأنثى، فهو يؤكد المعنى الجسدي الذي يتمسك به مجتمع ساده الغرام باللذة العاجلة".

ويسوق مالك أنموذجًا حيًّا لتكييف المرأة مع الاختيار الثقافي والحضاري والسياسيعن طريق الزي، وهو أنموذج المرأة اليهودية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي لهذا البلد، والتي كانت تتهيأ للهجرة من الجزائر نحو فلسطين لتندمج في حياة دولة "الصهاينة" الجديدة. فقد كانت هذه المرأة تأتي من أطراف الواحات الصحراوية الجزائرية بأزيائها البلدية لتتحول إلى "مواطنة يهودية" منذ أن تصعد الباخرة، حيث تترك المفلحة والكحل وترتدي الأزياء التي تناسب طبيعة المجتمع الجديد. ويرى أن هذا التغيير الشكلي في حقيقته هو مجرد خطوة أولى في سلسلة تطورية تصل إلى حد التغيير النفسي والفكري بعد أن تكون المرأة اليهودية قد ألقت عن جسدها اللباس القديم الذي كان يربطها بالمجتمع منذ قرون، واستعدت لإعادة بناء شخصيتها وتشكيل وعيها في المحيط الجديد.78

يرى أيضا أن اللباس يختلف حسب المرحلة التاريخية للمجتمع، فهو يكون متناسبا مع الحالة النفسية و الزمنية، و مدى فاعلية المجتمع، أو عدم فاعليته. فمن اللباس ما يشكل عائقا لفاعلية الشخص، و منه ما يكون مساعدا على تحقيقها. فاللباس له تأثير من زاويتين:

الزاوية الأولى: بالنسبة إلى المجتمع، فهو أحد العوامل المادية المؤثرة في التوازن الأخلاقي لمجتمع ما.

الزاوية الثانية: من الناحية النفسية بالنسبة إلى الفرد، فلكل لباس روحه الخاصة، فلباس الرياضي غير لباس الشخص المُسِن، بحيث يشعر لابس كل منهما بأثرهما النفسي.

لذا فعند تحديد الثقافة تحديدا إيجابيا، فلا بد من مراعاة مشكلة اللباس بإدخالها ضمن الإطار التربوي للمجتمع، و في نطاق مبادئه.

خلاصة :

إذا كانت التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي ليست عبارة عن أمور نظرية أو قواعد مجردة، و إنما هي في جوهرها قيم أخلاقية و ثقافية نابعة من أصالة المجتمع و دينه وتاريخه، و بقدر ما تستمد هذه التربية مفاهيمها من قيم المجتمع الثابتة، بقدر ما تكون قادرة على إحداث التغيير السليم في فكرة الفرد و نفسيته، بل تصنع من الفرد شخصا اجتماعيا يضيف جهده و عمله إلى مجموع الطاقات الفردية الأخرى التي تلتقي كلها في صورة نشاط مشترك يقوم به المجتمع ككل.

بهذا التعريف يلج بنا إ بن نبي إلى عوالم التربية الاجتماعية بداية من شروطها التي تبدأ من التغيير النفسي داخل الفرد، إلى تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال العمل المشترك التي يقوم به المجتمع التاريخي في صورة حضارية راقية يقوم به تتولد عن المجتمع الجديد، فيؤكد أن فعالية العمل الجماعي تبدأ بإيجاد تلك العلاقات الاجتماعية في المجتمع الحضاري الجديد. و تتشكل التربية الاجتماعية على عدة مستويات فهي عند الفرد تتأسس كسلوك اجتماعي على مجوعة من التصرفات، والسلوك التي تتم من خلالها عملية التغيير النفسي و الاجتماعي و الثقافي داخل المجتمع، و هذا يعني أنها تتناول السلوك الإنساني و تغييره، فهي العملية التي يحافظ بها المجتمع على بقائه و استمراره. و حتى يستمر المجتمع ينبغي أن يعمل على نقل معتقداته و معاييره و مهاراته. و من بينها الأخلاق و الفعالية و التكيف و الحرية و ، ثم يأتي دور النقد الذاتي كموقف فكري يتبناه الإنسان.و على مستوى الفرد، تأتي الكثير من بينها الواجب فوق الحق، و تأسيس العمل المشترك في إطار شبكة العلاقات الاجتماعية، إضافة إلى مبدأ المؤاخاة و التبادل و التعاون و السلام. و كان ينظر إلى كافة مناحي الحياة أن تأخذ بعدا تربويا على كافة الأصعدة و المستويات، ثم يعرج بنا إلى المستوى الثقافي ليتخلص الإنسان من رواسب إنسان ما قبل الحضارة و تحليل الخصائص المرضية للثقافة التي أنتجها مجتمع ما بعد الموحدين، حين انسحق الفرد تحت وطأة الاستلاب و الاغتراب، و توارث عبر أجيال متواكبة صفات سلبية شكّلت على مر العقود ثقافة المجتمع المنهار. و عموما فإن التربية الاجتماعية هي خلاصة الفعل الحضاري، إذ يتجلى لنا في تصرفات الأفراد داخل المجتمع، ثقافيا و فرديا اجتماعيا.

هوامش البحث:

[1] آفاق جزائرية، ترجمة:الطيب شريف، (ب ط)، مكتبة النهضة الجزائرية، (ب س) الجزائر، ص121

[2] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص67

[3] سورة الصف، الآية: 21

[4] سورة التوبة، الآية: 118

[5]ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص77.

[6] المرجع سابق، ص27.

[7] سورة الرعد، الآية:11

[8] شروط النهضة، مرجع سابق، ص75.

[9]ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص81

[10] المرجع سابق، ص95

[11] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص62.

[12] المرجع سابق، ص19.

[13] القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص98.

[14] علي القريشي، مرجع سابق، ص 231.

[15] شروط النهضة، مرجع سابق، ص78.

[16] المرجع سابق، ص114.

[17] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص14.

[18] وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص32.

[19]صحيح مسلم/ 3/ 1324 الحديث رقم : 1696.

[20] مولاي الخليفة لمشيشي، مالك بن نبي .دراسة استقرائية مقارنة ، معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية لمشروع " مشكلات الحضارة " ط1، دار النايا، دار محاكاة، دمشق، سوريا، 2012.ص

[21] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص78.

[22]شروط النهضة، مرجع سابق، ص78.

[23] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص28.

[24] عبد العزيز برغوث، مداخل التجديد الحضاري و آفاقه العالمية(دراسة في فكر مالك بننبي) ط1، دار التجديد للطباعة ،ماليزيا، 2005،ص 230

[25] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص63.

[26] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص29.

[27] عبد العزيز برغوث، مرجع سابق، ص215

[28] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص38.

[29] المرجع سابق، ص43

[30] كي الميلاد، الفكر الإسلامي، تطوراته ومساراته المعاصرة، ط1، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، 2001، بيروت، لبنان، ص 27.

[31] وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص84.

[32] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص106.

[33] تأملات، مرجع سابق، ص138.

[34] ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص80.

[35] المرجع سابق، ص107.

[36] وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 32.33..

[37] تأملات، مصدر سابق، ص ص 124، 125.

[38] تأملات، لمرجع سابق، ص 125.

[39] تأملات، المرجع السابق، ص 126.

[40] سورة آل عمران: الآية 110.

[41] تأملات، ص ص 61،62.

[42] شروط النهضة، مرجع سابق ،ص164 .

[43] وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 157.

[44] المرجع سابق، ص 157.

[45] سورة القصص: الآية 77.

[46] ميلاد مجتمع،مرجع سابق، ص 109.

[47] شروط النهضة، مرجع سابق، ص 85.

[48] المرجع سابق، ص107

[49] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص134.

[50] شروط النهضة- مرجع سابق، ص ص. 26 28.

[51]في مهب المعركة، مرجع سابق.ص ص 141، 142.

[52] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص179.

[53] سورة النساء، الآية : 59.

[54]وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 144

[55] في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 78.

[56] شروط النهضة، مرجع سابق، ص 35.

[57] شروط النهضة، مرجع سابق، ص 37.

[58] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 192.

[59] وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص143.

[60] ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص11.

[61] عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته و فكره.ط1، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت 2012. ص ص 278، 279.

[62] ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص30.

[63] المرجع سابق، ص36

[64] ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص37.

[65] المرجع سابق، ص43.

[66] المرجع سابق، ص53.

[67] المرجع سابق، ص28.

[68] المرجع سابق، ص 16.

[69] ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص31.

[70] آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص134.

[71] سورة الأنفال، الآية:63

[72] شروط النهضة، مرجع سابق، ص88.

[73] ميلاد مجتمع. مرجع سابق، ص14.

[74] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي مرجع سابق، ص176.

[75] وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 137.

[76] وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 56.

[77] المرجع سابق، ص 188 .

[78] في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 137.